على ما رزئت ، فقد فقدت خليفة الله ومنحت خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووهبت جزيلاً ، فأشكر الله على ما أعطيت ، وأصبر على ما رزئت) .

ومن هنا فقد أختلفت المعاني والافكار التي ذكرها الوفود حسب الغرض الذي وفدوا من أجله ، فكان منه خطب داعية للدين الاسلامي وأخرى للتهنئة أو التعزية ، وأخرى لبيان موقف سياسي أو للمطالبة بالعطاء .

٥. **خطب الوعظ والوصاية :**

من الطبيعي أن تندرج خطب الرسول (ص) ضمن الخطب الوعظية أذ كانت في أرشاد الناس ، وضرب الامثال وتذكر الدنيا الفانية . وهناك خطباً قائمة على الموعظة المباشرة ، وقد كثرت في خطب الخليفة علي بن ابي طالب (ع) نتيجة للظروف السياسية التي مرت بها الدولة بحيث يذكر الناس بواجباتهم ويخوفهم شر الفتنة وغرور الدنيا ، وخطب بعض الخلفاء الامويين خطب وعظية أكدوا فيها معاني الاسلام منها خطبة مروان بن عبد الملك ، وعرف الخليفة عمر بن عبد العزيز بسيرة تنفرد عن خلفاء بني أمية ، فقد كان تقياً ورعاً زاهداً عادلاً مقتفياً سيرة الخلفاء الراشدين ، خطب أول خلافته ، فقال : (بعد أن حمد الله واثنى عليه : أيها الناس أنكم لم تخلقوا عبثاً . ولم تتركوا سدا ، وأن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم من الجنة التي عرضها السماوات والارض ، وأعلموا أن الامان غداً لمن يخاف الله اليوم وباع قليل بكثيرا ، وفانياً بباق).

وقيل حين أنها خطبته بكا فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه . وذكر الجاحظ عدداً من النساك والزهاد الذين كانت لهم خطب وعيظة دارت على ألسن الناس ، فذكر منهم : الحسن البصري ، مطرف بن عبد الله الحرشي ، بكر بن عبد الله المزني ، وقدم عليهم الحسن البصري ، وذكر جملة من خطبه ، منها قوله : (يا أبن أدم بع دنياك بأخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع أخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، يا أبن أدم أذا رأيت الناس في ضير فنافعهم ، وأذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ، الثواب ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمتك أخر الامم ، وانتم أخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فما تنتظرون).

وكان لخطب الحسن البصري تأثير كبير في نفوس السامعين ، ومن ما يذكرأن ، عمر بن هبيرة الغزاري ولي أيام يزيد بن عبد الملك على العراق فاستدعى الحسن البصري وابن سيرين والشعبي وكلهم من الخطباء ، فقال لهم : (أن يزيد استخلفه الله على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، فكتب ألي بالأمر أني أخاف في تنفيذه ، الهلكة فأخاف أن اطيعه غضب الله ، وأن عصيته لم آمن سطوته فما ترون ، فقال ابن سيرين والشعبي قولاً بالتقية . ولكن الحسن البصري تكلم وقال واعظاً :

(يا أبن هبير خف الله في يزيد ولا تخف يزيد من الله ، أن الله يمنعك من يزيد وأن يزيد لايمنعك من الله) فلما أكمل خطبته بكا عمر بن هبيرة بكاء شديدا .

أما الوصايا فهي خطب أيضاً ولكن ميدانها محدد لأن الخطيب يوصي من يخاطبهم بجملة مبادئ أو قضايا ويطلب منهم الالتزام بها ، فهناك وصايا الحرب التي يبين فيها الخليفة ما يجب ان يلتزم به القائد أو جنده في حالة الحرب ، من ذلك وصية أبي بكر (رض) لأول أمارة جيش عقدها لأسامة بن يزيد وهي : (أيها الناس : قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني لاتخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيراً ألا لمالكه ، أندفعوا بأسم الله) .
وهناك وصايا الآباء والامهات لأبنائهم في الحرب منها وصية الخنساء لبنيها الأربعة ، ووصية أسماء بنت أبي بكر لأبنها عبد الله بن الزبير حين غلب على أمره ، وهناك وصايا الخلفاء لمن يأتي بعدهم بالخلافة مثل وصية أبي بكر (رض) لعمر بن الخطاب (رض) ووصية عمر بن الخطاب (رض) لمن يخلفه .

أما شكل الخطابة الفني فنجد ألتزام الخطباء بمقدمة تبدأ بالحمد والشكر لله وذكر أن الخطبة التي لم تزين بالقرآن الكريم والصلاة على النبي (ص) تدعى (الشوهاء) وسميت خطبة زياد بن أبيه (البتراء) لأنه لم يبدأها بالتحميد والتمجيد لله . وقد أتخذ الخطباء من مقدمات خطب الرسول (ص) أمثلة ونماذج يفتتحون بها خطبهم وهكذا كانت خطب الراشدين وخطب الأمويين على أختلاف المواضيع .

أما ورود السجع أو الصنعة الفنية في خطب هذه الفترة فأننا نلاحظ وروده بشكل انسيابي غير متكلف ولا ثقيل ، وأن ورد طباق فعلى السليقة أو البديهة ، ولكم مايمكن ملاحظته لجوء الخطباء الى العبارات الصغيرة التي تجعل الخطيب ممسكاً بذاكرة المستمع أو انتباهه وعواطفه مع جمعهم بين التخيل والتصوير في عرض أفكارهم أو دعواتهم من خلال الخطب .

ب. الرسائل :

من البديهي أن يهتم الاسلام بصورة عامة والرسول (ص) بصورة خاصة بالكتابة والتشجيع على تعلمها وقد أشترط الرسول (ص) على أسرى بدر أطلاق سراح كل رجل يعرف القراءة والكتابة على أن يعلم عشرة من صبيان المدينة دون فداء ، وكان لحاجته الى تدوين القرآن الكريم وحفظه وحاجة الدولة الى الكتابة ماجعله يهتم بها لأنها ستكون الأساس الذي تعتمد عليه دولته في مراسلاته ومباحثاته مع القبائل العربية ودول الجوار التي بعث اليها وفوده يدعوها الى الاسلام وقد ذهب بعض الباحثين الى أن الكتابة أستخدمت قبل هجرة الرسول (ص) الى المدينة وقبل نشوء الدولة الاسلامية ، فيروى أن رسول الله (ص) قد أتخذ شرحبيل بن حسنة كاتباً في مكة . فقد روي أن الداريين طلبوا من الرسول (ص) أن يقطعهم أرضا بالشام أن فتحها وكتب لهم كتاباً بخط شرحبيل ، ومن الممكن التشكك في صحة الرواية ، أذ لم يفكر الرسول (ص) بعد فتح الدول المجاورة حتى يقطع أرضاً بها .
وهناك مجموعة من الوثائق ورد فيها كتاب بعثة الانصار الى الرسول (ص) حين أنصرف من بيعة العقبة الاولى ، وكتب الأنصار ان أبعث الينا رجلاً يفقهنا في الدين

ويقرئنا القرآن ، وهناك وثيقة أخرى كتبها الرسول (ص) قبل هجرته وأرسلها الى مصعب بن عمير لإقامة الجمعة في المدينة ، وهكذا كان أنشاء نظام المراسلات الداخلية والخارجية .

وحين هاجر الرسول (ص) الى المدينة وهاجر معه أصحابه ، وكان لابد له أن ينظم الحياة الجديدة لتكون نواة دولة أسلامية ، فكتب كتاباً ضمنه تعاليمه فيما يخص العلاقة بين المهاجرين والأنصار ، أو بين المسلمين واليهود ، وألزم كل طرف بما له وبما عليه من واجبات وحقوق ، وحين بدأت قريش بمناوراتها السياسية فكان لابد للرسول (ص) أن يستطيع معرفة أخبارها وتحركاتها ويرسل السرايا فأرسل عبد الله بن جحش ومعه كتاب وأمره أن لاينظر فيه فيمضي وأمره في أخبار غزوة الخندق أن المسلمين قبل أن يخوضوا الحرب بلغهم كتاب من أبي سفيان الى النبي (ص) يفاوضه قبل أن تبدأ الحرب ويهدده بالقتل أن لم يستجب الى ما تريده قريش ، وقد أجابه الرسول (ص) بكتاب يرد عليه ، وفي السنة السادسة للهجرة حدث صلح الحديبية بين الرسول (ص) وقريش وأتفق الطرفان في كتاب كتب لذلك أمده عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وكان من الطبيعي ان يتيح صلح الحديبية فرصة سانحة للرسول (ص) لينشر دعوته في أرجاء بعيدة وذلك أنه أخذ يرسل الوفود الى الملوك والقبائل وبعث معهم كتب يدعوهم الى الاسلام فبعث دمية الكلبي الى ملك الروم ، وبعث حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس وكانت كتب وفوده تترى على النجاشي ملك الحبشة يدعوه الى الاسلام .

وكانت كتب الرسول (ص) من الكثرة مما جعلته يتخذ كتاباً يكتبون للملوك . وصار لهولاء الكتاب واجبات يختصون بها ، فكان علي أبن أبي طالب (ع) وعثمان بن عفان (رض) لكتابة الوحي ، فأن غابا كتبه أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان خالد بن سعيد ومعاوية لكتابة الحوائج ، وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير للكتابة ما بين الناس ، وعبد الله بن الارقم والعلاء بن عقبة يكتبان في قبائلهم وزيد بن ثابت للكتابة الى الملوك مع كتابة الوحي .

وكان الرسول (ص) يسعى لتوطيد أركان دولته من الداخل ، فيأمن شر اليهود الذين يعيشون بين ظهران المسلمين . فأستخدم الكتابة فدعاهم الى كتاب يكون بينه وبينهم ، وهناك أيضاً كتب الأمان والصلح بين المسلمين واليهود .

وبعد وفاة الرسول (ص) وجدت للكتابة مجالات جديدة وأحداث أستوجبت المراسلة ، وأتسعت أغراضها ومن تلك الاحداث حروب الردة ، فقد أرتدت قبائل كثير من العرب لأيمانها الضعيف بالاسلام وقدمت الكتب الى المدينة معلنة عصيانها فعقد أبو بكر (رض) أحد عشر لواءاً وأمر جنده بأستنفار المسلمين ، وكتب كتباً أخرى الى قبائل أخرى ، وكتاباً مع خالد بن الوليد الى بني أسد ومن تبعهم من المرتدين يأمرهم بتقوى الله والاهتداء بهدايته ، وحين تعود القبيلة المرتدة الى الاسلام يكتب لها أماناً وعهداً يسجل فيه الصلح ، وكانت كتابات أبي بكر (رض) كذلك مع المرتدين من بني كندة وعليهم الاشعث بن قيس ، قد بعث بها مع أمير الجيش زياد بن أبيه ، وكان

الأخير يكتب إليه أخبار المعارك ويطلب منه الإمداد لذلك ، وأنتهت حروب الردة وطويت صفحاتها بعد أن تكبدت المسلمين خسائر عظيمة في الأموال والأرواح ،فتبدأ صفحة جديدة هي معركة الفتوحات الاسلامية ، فأستقرت الفتوحات الاسلامية في العصر الأموي ألا أنها كانت في أوقات متباعدة كذلك كانت رسائل العصر فيما يخص الفتح أقل منها في عصر صدر الاسلام ، ولعل ذلك يعود الى أن قادة الحروب كانوا يراسلون والي مصر الذي خرجوا منه ، وهذا بدوره يبعث بأخبار الفتوح الى الخليفة في دمشق مما يؤدي الى تأخير الرسائل أو أنتظار نهاية المعارك لأخبار الخليفة بالنصر الأخير ، وكذلك أستمر المسلمون في مكاتبة أهل المدن المفتوحة منذ دخولها الاسلام ودعوتها الى الاسلام ، أو دفع الجزية وكتابة العهد لهم ، أما المكاتبات بين الولاة والخوارج كثيرة ، فقد تجمعوا في زمن معاوية في الكوفة، ولكنهم ساروا بعد ذلك الى المدائن ودارت معركة بين معقل بن قيس وبينهم وأنتهت باتجاههم الى الاهواز وأمروا عليهم نافع بن الازرق ، ومضى فريق منهم الى اليمامة ، ولما أشتدت شوكتهم خشى أهل البصرة من أجتياحهم المدينة فكبوا الى المهلب بن أبي صفرة لقتالهم ، وكان يكتب لأمير البصرة يخبره بالنصر ، وكذلك كان لعمر بن عبيد الله النصر عليهم وهزيمتهم وخذلانهم .

وكان للولاة مع الخليفة مكاتبات في شؤون امارتهم من ذلك أن عمرو بن العاص حين فتح الاسكندرية وهم أن يسكنها فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول ما أذا كان الماء يحول بينه وبين المسلمين أذ سكنوا الاسكندرية فقال : (نعم يا أمير المؤمنين أذا جرى النيل ، فكتب الى عمرو أني لا أحب أن تنزل منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف .

وكتب حذيفة بن اليمامة الى الخليفة وكان مع سعد بن أبي وقاص في العراق كتاباً يخبره عن أمر المسلمين والعرب أنهم قد تغيرت الوانهم فكتب عمر الى سعد يستفسر عن ذلك ، فكتب اليه سعد ان العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلوان ، فأبعث سلمان وحذيفة ليرتادا للمسلمين فنزلا بريأ وأشترط أن لايفصل بين المسلمين والخليفة ماء ، فأرتاد الرائدان الكوفة للمسلمين وكتب سعد بذلك الى الخليفة مما يدل على أهتمام الخليفة بأمور المسلمين واعتباره مسئولاً تجاه ربه عن أمرهم وراحتهم .

ومن خلال تتبع نصوص الرسائل لمعرفة تطور الكتابة نصل الى ما يأتي :

سمات الرسائل أو خصائصها :

١. الإيجاز المعبر عن الفكرة والموقف بألفاظ مباشرة القصد منها الإفهام والتبليغ ، مثل كتابة الرسول(ص) الى مصعب بن عمير قبل الهجرة يأمره بإقامة الجمعة في المدينة : (فأذا فال النهار عن شطره من يوم الجمعة فتقربوا الى الله ركعتين) وتتكرر مثل هذه الإلفاظ في كتب الرسول (ص) بعد الهجرة أيضاً .

٢. ابتداء الرسائل والكتب بالبسملة وهذه سمة فنية ميزت رسائل العصر الاسلامي عما قبل الاسلام ، أذ لم تزل الكتب تستفتح (بأسمك اللهم) حتى نزل قوله تعالى : (أنه من سليمان وأنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فأستفتح بها الرسول (ص) وكانت قريش تكتب (بأسمك اللهم) ومما يروى عن سفيان الثوري أنه يكره الرجل أن يكتب شيئاً حتى يكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وقد أفتتح الرسول كتابه في المدينة المنورة بقوله : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس .....)

٣. ذكر حمد الله والثناء عليه بعد البسملة : وهذه سمة فنية أيضاً أرتبطت فكرة التوحيد ووجوب ذكر الله وحمده وشكره ، وقد ورد التحميد في كتابه (ص) الى النجاشي ملك الحبشة : (بسم الله الرحمين الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة أسلم فأنت فاني ، أحمد أليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ..) كما ورد التحميد في رسائله الى المنذر بن ساوى والى أسقف أيله ، والى صاحب البحرين ، أما في كتاب صلح الحديبية فأننا لانجد البسملة ولا التحميد وهذا طبيعي لأن قريش كانت حريصة على عدم ذكر ذلك .

٤. كثرة ألاقتباس من القرآن الكريم وإيراد الآيات القرآنية المعبرة عن المعنى وقد ورد ذلك في الرسائل التي تبادلها الرسول (ص) مع اليهود أو النصارى ونجد ذلك في كتابه الى اليهود يدعوهم الى الاسلام .

سمات عبد الحميد الكاتب :

١. قد برع في صياغة الرسائل واجاد التعبير عن المعاني والتانق في اختيار المفردات الداله .

٢. اخذ بتقسيم الجمل تقسيماً فهي ان اطال تساوت في طولها وان قصرت تساوت في قصرها كأنه قد وزنها وزنا واحياناً يزينها سجعات تبدو غير مستكره ولا متكلفة .

٣. عني بالخيال والتفاد في الطبقات او المقابلة ليزيد الفكرة وضوحاً وتاييداً وهو اول من اكثر الاطناب بالترادف وتكرار المعنى الواحد في عبارات عدة بعضها تاكيداً وتوضيح لما سبق وبعضها تفصيل لجوانب الفكرة وبعضها توليد في المعاني .

٤. يرتب افكاره ترتيباً والاعلى حسن الاستعداد والمهارة في في الاعداد فيقسم الموضوع الى اجزاء ثم يقسم كل جزء الى اجزاء صغار فتظهر كتاباته مثل صحة العناصر مترابطة الافكار .

٥. اكثر من استعمال الحال معتمداً عليها في تعديد فكرة وتوضيحها وتجميل الكلام واظهار الموسيقى واستعمال الحال على هذا النحو من خصائص اللغة اليونانية .

٦. اول من اطال التحميد في الرسائل وتوسع فيها بتكرار المعاني تارة وتوليد بعضها من بعض تارة اخرى وكان بعض الرسائل يبدأ بالحمد ثم يعيده في فصولها .

٧. نوع معاني التحميد للمقام ومناسبة الموضوع فكان معناه تحميده في ولاية العهد غير تحميده في التبشير يفتح او نصر وكان تحميده في التهنئة غير تحميده في التعزية .

٨. هو اول من عقب بالحمد بعد البسملة فاصل بينهما بأما وبعد فيقول مثلاً بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّ الله الرحمن الرحيم اما بعد الحمد لله ثم يبدأ .

٩. نوع في اختتام الرسائل كما نوع في بداياتها مراعاة للمقام وموضوع المقالة .

١٠. كان لايتكلف في تعبيره بحيث يشعر القارئ بثقل وجفاف وانه كان يتريث في عباراته وفي اللفاظه .

****